الجزء الحادي عشر — المجلد الرابع

المنار

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

نبذة من كلمة ... في الحكمة ... فقد أوتي خيراً كثيراً

١٣١٥

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الجمعة غرة جمادى الاولى سنة ١٣١٩ — ١٦ اغسطس (آب) سنة ١٩٠١)

علماء الدين

وحديث صاحبي السياحة والفضيلة شيخ الاسلام ومفتي الديار المصرية

« ثُمَّ أورثنا الكتابَ الذين اصْطَفَينا من عبادِنا فمنهم ظالمٌ لنفسهِ ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير »

الدين كما قالوا : وضع الهيٌّ سائق لذوي العقول باختيارهم الى ما فيه صلاحهم ونجاحهم في الحال وفلاحهم في المآل . فثمرته سعادة الدنيا والآخرة ولا تحصل هذه الثمرة الا بالعمل به والاهتداء بهديه ولا يكون العمل الا عن علم ولا الهُدَى الا بِهَدْيٍ « فاما يأتينكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فان له معيشةً ضنكا » اي في الدنيا « ونحشرهُ يوم القيامة اعمى » عن طريق النجاة . والدنيا مزرعة الآخرة فقد الثمرة الاولى عنوان على فقد الثمرة الاخرى لانهما معلولان لعلة واحدة او مسببان عن سبب واحد وهو الدين

الانبياء عليهم الصلاة والسلام تلقوا الدين من العليم الحكيم وتصدوا لتعليمه للناس بما عهد الله اليهم فاقاموا البرهان وحاجوا أهل الزيغ والطغيان حتى اوذوا فى الله فصبروا وسعد الناس بهديهم وارشادهم فى دنياهم وسيسعدون به فى اخراهم وعلماء الدين ورثة الانبياء ونوابهم الذين يقومون بوظيفتهم لان الله اخذ الميثاق على الذين اوتوا الكتاب من بعدهم كما اخذه عليهم « لَيُبَيِّنُنَّهُ للناسِ ولا يكتمونه » فمنهم من وفّى بالميثاق ومنهم الذين نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً ومنهم ما هو بين ذلك

قد كان علماء سلفنا الصالح خيرا من سلف سائر الانبياء حيث كنا بهم خير امة اخرجت للناس لانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن عن المنكر ويرشدون الى مصالح الدنيا والآخرة . ثم حصل الفتور فى العلم الذى هو روح الدين وهو ما يودع القلوب خشية الله تعالى وينزع النفوس عن الشر ويوجهها الى الخير الذى فيه سعادة الامة فى افرادها ومجموعها حتى قام بعض الائمة كالامام الغزالى يرمي العلماء بالتقصير فى علوم الدين ويعذلهم على التوسع فى علم الفقه الذى سماه من علوم الدنيا ولقب العلماء المنصرفين الى ذلك بعلماء السوء وذكر انهم يزعمون بذلك احياء فرض الكفاية ولو صدقوا لانصرف بعضهم لاحياء سائر العلوم التى تنفع الامة فى الدنيا ولا بد منها وهى من فروض الكفايات كعلم الطب . وقد اطال فى كتابه احياء علوم الدين النعي عليهم والتنديد بهم حتى حملهم ذلك على الطعن فيه بانه ادخل الفلسفة فى الدين وأحرقوا كتابه الاحياء فى اسواق القاهرة وغيرها ثم كتبوه بماء الذهب وقالوا إنه احسن كتاب الف فى الاسلام وجرى على خطة الغزالى فى الانتقاد آخرون

هذا ما كان فى القرون المتوسطة اذ العلماء علماء والمسلمون فى عزهم وسؤددهم يفوقون جميع الناس فى العلوم والاعمال والقوة والثروة وعلماؤنا اليوم يعترفون بان العلم والدين كانا فى عصر الغزالى خيراً مما صارا اليه فى القرن الذى بعده وان التدلى فيهما صار بالتدريج الى عصرنا هذا فكل قرن دون ما قبله . ولكنهم اذا رُموا بالتقصير فى الارشاد الى الدين والقيام بحقوقه كما رمى الامام الغزالى علماء عصره يكبر عليهم ذلك وان كانوا يفضلون اولئك العلماء على انفسهم ويرون غاية العلم فهم كلامهم

لا يطلق لقب علماء الدين على الذين عرفوا من دينهم ما يجب عليهم فقط وانما يطلق على الذين عرفوا الفروض العينية والكفائية واحيوا سنة الرسل بالتعليم والارشاد والتبشير والانذار لجميع الناس ولا يكفى فى هذا ان ينقطعوا عن الناس فى مكان واحد من البلد او القطر يتدارسون فيه اصطلاحات بعض الفنون وقواعدها مع من يحضرهم ويدعون سائر الامة وشؤنها

يعرف الشيء بنتائجه وآثاره كما يعرف بمقدماته ومبادئه وكما يعرف بذاته وكنهه وقد تقدم ان نتيجة الدين وثمرته سعادة الدين والآخرة فلو ان علماءه قائمون بوظائفهم حق القيام بحسب ما تعطيهم وراثة النبوة لما سلبت سعادة المسلمين من ايديهم — ولما صاروا اعداء متخاذلين بعد ان كانوا اخواناً فى الدين — ولما تجرأ المبتدعة والكفار على الطعن بدينهم ولم يجدوا منهم مدافعاً ولا معارضاً ولا يحسن أن نذكر اخبار بعض المرتدين مع بعض علماء الازهر فما كل ما يعلم يقال — ولما اصبح الجهل بالدين عاماً فى جميع طبقات الامة من الحكام والامراء الى المماليك والفقراء

أصبحت شكوى المسلمين من سوء حالهم عامة لان سلطان الاجنبي أصبح فيهم عاماً ولا خلاف بين عقلاء الباحثين فى ان سبب ذلك هو الانحراف عن صراط الدين ويدل على هذا قوله تعالى « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » وقوله عز وجل « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وغير ذلك من الآيات فهل نكابر الحس ونقول اننا منصورون وانه ليس للكافرين علينا سبيلٌ ما بوجه من الوجوه كما يفيده وقوع النكرة فى سياق النفي ؟ أم نقول ان الله تعالى يخلف وعده ولا يصدق كتابه ؟ (معاذ الله وحاش لله) ام نقول اننا لسنا بمؤمنين ؟ ام ماذا نقول ؟

أهون هذه الاقوال صعب شديد وليس لنا مندوحة عن القول الاخير مع التأويل بأن نقول : اننا لسنا بمؤمنين الايمان الكامل الذى يستولى على الارواح والنفوس ويثقف الاذهان والعقول ويحمل على الاعمال النافعة التى تثمر السعادة والسيادة . ولكن لماذا تركنا الايمان على هذا الوجه النافع المرضى لله تعالى

هل تلقّى احد الايمان على هذا الوجه ثم تركه ؟ كلا انما فقد منا هذا الايمان بفقد العلماء الذين يبثونه فى النفوس ويودعونه فى القلوب فقد ورد فى الحديث ان الله لا ينزع العلم من القلوب انتزاعاً وانما يذهب العلم بموت العلماء

يعتقد المسلمون كافة ان هذا البلاء الذى هم فيه لا ينكشف عنهم الا بالرجوع الى دينهم على الوجه الذى يهدي الى سعادة الدارين بالقيام بمصالح الروح والجسد والباحثون منهم فى حيرة لا يدرون كيف يكون هذا الرجوع وبماذا يكون ولذلك توجهت انظارهم الى العلماء لان هذا

الذى يطلبونه لا يكون الا بالهدي النبويّ الذى هو وظيفتهم ولكنهم اهملوها . ومطالبتهم بها تعظيم لشأنهم ورفع لمقامهم وثقة كبرى بفضلهم . تحدث بهذا المحاورون والسامرون ، وكتب فى موضوعه الكاتبون ، ولكن اكثر العلماء عنه غافلون ، لانهم لا يبحثون فى شؤون المسلمين الاجتماعية ولا ينظرون فى مصالحهم الملية ، ولما ملأت الشكوى كل مكان ، وكادت تصخّ منهم الآذان ، اعترف بحقيتها منهم العقلاء المنصفون ، وانكرها المكابرون المغرورون ، فطفق علماء البلاد الهندية ، يؤلفون الجمعيات العلمية الدينية ، للبحث فى هذه الشكوى ، وتلافى هذه البلوى ، ولم يتنبه فى سائر البلاد ، الا بعض افراد ، لم يظهر لهم عمل ، يتعلق به الامل ،

أما هذه البلاد المصرية فقد اشتهر فيها مفتيها الاستاذ الشيخ محمد عبده بالغيرة على الاسلام والسعي فى الاصلاح العلميّ الدينيّ فى الازهر الشريف وغيره والدنيوي الملي فى الحكومة والجمعية الخيرية الاسلامية التى هو رئيسها واكثر العلماء لا يزالون واقعين ساكنين ، غارّين آمنين ، محافظين على طريقتهم العتيقة فى مزاولة بعض الفنون العربية والشرعية وانما قلت بعضها لان بعض المقاصد مفقودة من الازهر كالانشاء والخطابة وعلم الاخلاق الدينية والتاريخ الاسلامى بفروعه الكثيرة . ولهذا الجامع الشريف الفضل فى حفظ ما حفظه من تلك الفنون بالجملة وان لم يكن بالطريقة العملية المقصودة اذ لولاه لتلاشى العلم الاسلامي من هذه البلاد بالمرّة ولكنه لم يحفظها على كمالها كما كانت فى القرون المتوسطة وانما حفظ رسومها وانقاضها وله الفضل على كل حال ونرجو له الرجوع الى احسن مما كان نعلم مما تقدّم ان عقلاء المسلمين يرون ان سعادتهم بعلمائهم اذ اصلحوا

لأنهم كالقلب الذي يصلح بصلاحه الجسد كله كما ورد فى الحديث فلا يسرُّون بشيء كسرورهم من توجه كبار العلمآء الى شؤن المسلمين العامة ولهذا وقع الحديث الذى دار بين صاحبي السماحة والفضيلة الشيخ جمال الدين أفندى شيخ الاسلام والشيخ محمد عبده مفتى أفندى الديار المصرية فى دار السعادة أحسن موقع عند جميع العقلاء والفضلاء لأن اتفاق هذين الشيخين وهما اكبر علمآء المسلمين على ان صلاح حال المسلمين انما يكون بسعي العلمآء الموافق لحال الزمان وبتطبيق العلم على العمل ينهض من همتهم ويعرفهم قيمة وظيفتهم العالية ويحثهم على القيام بها

(حديث شيخ الاسلام ومفتى الديار المصرية فى العلم والعلماء)

قال (المفتى بمناسبة كلام مع الشيخ) ان كان للمسلمين شكوى مما يرونه ماسًّا بشريعتهم فاجدر بهم ان يشتكوا من انفسهم لا ممن يعتدي عليهم

(الشيخ) لا ريب فى ذلك فان حياة كل امة تقوم باستعدادها لكل زمان بما يناسبه ومن غالب الزمان غلبه الزمان . ولكنا نؤمل ان تتغير الحال ويتنبه المسلمون لما فاتهم فيحصلوه وذلك لا يكون الا بهمة علمائهم . وحملة شريعتهم

(المفتى) نعم ذلك لا يكون الا بهمة علمائهم ولكن العلماء فى انصراف تام عن شؤن العامة وقد تركوا اهم تلك الشؤن الى الحكام ووكلوا بعضها الى العامة انفسهم وجعلوا نصح العامة والخاصة أو الاشتغال بما يهيئ لذلك من العمل مما لا يعنى ولم تبق لاحد منهم علاقات مع العامة الا مع الأولئك القصاص الذين يسمونهم وعاظاً او مدرسي مساجد وما هم من علم الدين وشؤن العامة على شيء وهم يفسدون اكثر مما يصلحون

(الشيخ) لا شك ان اغلب المشتغلين بعلوم الدين تنقصهم الخبرة باحوال الناس ويفوتهم العلم بما عليه اهل العصر ولو خبروا الزمان واهله لامكنهم ان يحموا شرعهم ويعلوا شأن اهل ملتهم مع ان العالم لا يكون عالماً حتى يكون مع علمه عارفاً والعارف هو الذي يمكنه ان يوفق بين الشرع وبين ما ينفع الناس في كل زمان بحسبه ومن كان بارعاً في العلوم الدينية ولكن لا يعرف حال اهل عصره ولا يراقب احكام زمانه فلا يسمى عالماً ولكنه يسمى متفنناً أعني انه يعرف فن النحو او فن الفقه او ما اشبه ذلك ولا يسمى عالماً على الحقيقة حتى يظهر أثر علمه في قومه ولا يظهر ذلك الاثر الا بعد علمه باحوالهم وادراكه لحاجاتهم

(المفتي) ما تقوله سماحتكم هو المعروف عند الاولين من علمائنا. وقد جاء في كثير من كتب السادة المالكية تعريف العالم بانه (العاكف على شأنه البصير باهل زمانه). وهو تعريف للعالم بالغاية من علمه والمكوفُ على الشأن ان لا يضيع العالم زمنه الا فيما يفيده ويفيد العامة لان هذا هو شأن العالم الذي ينبغي ان يعكف عليه. ولذلك اتبعه بالوصف الآخر وهو البصر باهل الزمان لان البصر باهل الزمان انما يدخل في الغاية من العلم لانه وسيلة للتمكن من العمل به في اهل ذلك الزمان. وكأن صاحب هذا التعريف يقول من فرط في شيء من زمنه ولم يستعمله فيما من شأنه ان يستعمله فيه او اساء استعماله بسبب جهله باحوال هذا الزمان فهو يثير المقال ثراً لا يبالي كيف يقع ولا يعرف هل يصغى عليه او يخضع له ويخشع. من كان كذلك فهو خارج عن مفهوم العالم لا ينطبق عليه تعريفه. وغاية ما يمكن ان يصل اليه إن عرف شيئاً من العلم أن يسمى حافظاً

(الشيخ) نعم ان مما يؤسف عليه الاسف العظيم ان من كان من علماء المسلمين على شيء من العلم فانما يعد فى الحقيقة متفننا ولا يصح ان يطلق عليه اسم العالم . وبذلك بقيت الشريعة مدفونة فى الكتب وحرمت ارواح اهليها من التمتع بآدابها — ثم تبسم قائلاً : ولعل الذى مال بحملة الشريعة الى البعد عن شؤن العامة هو انهم ارادوا ان يخدموا انفسهم خاصة دون الناس عامة

(المفتى) وهل تعد سماحتكم ذلك خدمة لانفسهم مع ما تراهم فيه من الضعة والخمول وحرمان اعاليهم من الحقوق التى يتمتع بها اسافل غيرهم وفراو الدنيا من وجوههم وهم اتعب الناس فى طلبها وبغضها لهم وهم احرص الناس على حبها . واذا قنع احدهم بشيء منها فهي وقفة العاجز لاقناعة العزيز . أفما كانوا اعز واكرم ومقامهم اسمى واعلى لو كانوا علماء على النحو الذى عرفه اسلافنا

(الشيخ) صدقت فان من اراد ان يخدم نفسه وجب عليه ان يخدم العامة لاندراج المصلحة الخاصة فى المصلحة العامة فاذا ضاعت المصلحة العامة ضاعت الخاصة ايضاً واذا حفظت الاولى حفظت الثانية

(المفتى) نعم يامولاى هذه هى القاعدة الحقيقية ولكن مدرسي كتب الفقه لا يعتنون بتقريرها لطلبتهم . فهؤلاء الذين سميتهم سماحتكم متفننين لم يروا هذه القضية فيما درسوا فلعل ذلك عذرهم فيما نسوا » اه بحروفه عن المؤيد

الفائدة فى هذا الحديث هى الارشاد الى العمل بالعلم ونفع الناس به فمن كان يصدق عليه من العلماء يسر به ومن كان حجة عليه يستاء فى نفسه

ولكنه لا يظهر الاستياء لئلا يكون مسجلاً على نفسه ذلك اللهم الا ان يُغلب على امره باعتقاد ان الكلام ظاهر الانطباق عليه عند الناس لعلمهم بانه لم يحصّل من العلم الا حفظ بعض الاصطلاحات التي لا اثر لها في عمله ولا يمكن ان ينفع بها الناس او لحسدٍ شديد لمن ظهر الحق على لسانه فهو يكابر الحق ويجادل فيه بعد ما تبين وعلم انه الحق وان ما بعده هو الضلال

نشر الحديث في المؤيد فذكر المقطم في العدد الذي صدر منه في اليوم التالي لنشره ان العلماء في مصر عموماً وعلماء الازهر خصوصاً قد استاؤا منه ووقع عليهم كالصاعقة فنشر المؤيد في اليوم الثالث مقالة لبعض العلماء يقيم الحجة فيها على المقطم بانه ليس من المعقول ان يعلم باستياء العلماء كلهم في مصر في صبيحة يوم واحد فلم يجد المقطم جواباً الا انه استنجد ببعض العلماء المتفننين الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فكتب له نبذة بعد يومين يزعم انه بيّن فيها سبب استياء العلماء من حديث الشيخين كأنه حقيقة واقعة . أما السبب الذي كتبه فهو مما يضحك الناس على حماقته وقد خدم المقطم الاسلام باظهار سخافته كأنه يقول هذه افكار الذين يعارضون كلام الأئمة الراسخين ولا ندري هل قصد المقطم هذا ام لا ؟

زعم ذلك المتفنن ان السبب في استياء العلماء المزعوم انه يوجد فئة ذات عُدّة عظيمة يريدون ابطال مذهب اهل السنة ورأوا ان يسقطوا العلماء من نظر العامة ليتمكنوا من ذلك لان العلماء هم حراس السنة فهم دائماً يذمون العلماء وجاء كلام الشيخين في ذم العلماء مؤيداً لكلامهم !!!

لعمري لا يقول هذا القول من بلغ ان يكون متفنناً او حافظاً وانما

هو كلام غبيٍّ لم يفهم معنى الكلام ، وان كان لم يغرب عن افهام العوام ، الشيخان يحثان العلماء على العمل بعلمهم وان لا يقتصروا على حفظ الاصطلاحات الفنية وهل يمكن ان يحرسوا السنة الا بهذا ؟ . هؤلاء البابية قد ألفوا كتاباً يريدون به ابطال مذهب السنة بل والاسلام كله وقد نشروه حتى فى الجامع الازهر فهل قام من العلماء الذين سماهم انصار السنة من حامى عن السنة الا الاستاذ مفتي الديار المصرية الذى اتفق مع الاستاذ شيخ الجامع على تأديب ناشره وغير هذا الفقير الذى رد على كتابهم فى المنار . وهؤلاء دعاة المسيحية ينشرون الكتب والجرائد فى الرد على الاسلام وقد اشتغلت بشبههم الأذهان فهل تصدى هو او غيره من اهل الازهر للرد عليهم ؟ ؟ وهذه البدع والمنكرات فاشية فهل انكرها منهم أحد

يتخذ صاحب المقالة المقطمية اسم العلماء ترساً يدافع به الحق الذى يكلفه بالعمل ويعدُّ هذا التكليف طعناً بالعلماء جميعاً كأنه يحكم عليهم بانه لا يوجد فيهم عامل بعلمه خادم لدينه ويسمّى الذى يعلق آمال المسلمين بهم طاعناً فيهم ويزعم ان الأولى تعليق الآمال بالحكام والامراء وهو يعلم سلطة الاجانب عليهم فنعوذ بالله من الجهل ونعوذ بالله من الغش

جعل الله علماء الدين الذين أورثهم الكتاب ليكونوا نواباً عن الرسل فى الهدى والارشاد على ثلاثة اقسام ظالم لنفسه لا يعمل به ومقتصد يشتغل فى اصلاح نفسه والعمل بما وجب عليه وسابق بالخيرات يعمل ويعلّم الناس ويرشدهم الى الاهتداء به (هذا التفسير هو الذي اختاره العلامة البيضاوي وغيره) وهذا القسم الثالث هو الذى تحيا به الملة وتحفظ السنة

وقد ضعف الاسلام والمسلمون بضعفه وكادوا يتلاشون بتلاشيه وكلام الشيخ والمفتى ينفخ روح الغيرة فى القسم الاول والثانى ليرتقوا الى القسم الثالث وكلام صاحب المقالة المقطمية يسجل عليهم بانهم من القسم الاول أو الثانى ويسمي هذا نصراً للسنة وما هو الا نصر للمقطم وتصديق له بأن العلماء قد استاؤا من كلام الشيخين ولعله هو الذى غشه أولا وصدقه ثانياً

عهدنا بهذا المغرور انه يحرّم نشر الآيات القرآنية فى الجرائد فلماذا ملأ مقالته بالآيات التي حرفها عن مواضعها ووضعها حيث شاء الهوى «يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً» وعهدنا به يحرّم الكتابة فى الجرائد الاسلامية ولو لخدمة الملة الحنيفية والدولة العلية فكيف استحل أن يكتب فى جريدة يعتقد هو واكثر قومه ان لم نقل كلهم بانها ضد الدولة وغير خادمة للملة ؛ ألم يجد جريدة يدافع فيها عن السنة والاسلام وعلمائه الاعلام الا هذه الجريدة التى لم تنشأ لهذا القصد ولولا ارادة تأييد كلامها لما نشرت مقالته . لا نريد بهذا طعناً بالمقطم وانما نريد تفنيد هذا المغرور بما هو مسلّم عنده وسنبين وظائف العلماء فى الجزء الآتى والى الله تصير الامور .

«شبهات المسيحيين على الاسلام وحجج الاسلام على المسيحيين»

(نبذة ثالثة تابعة لما فى الجزء الخامس والجزء العاشر)

بيّنا فى الجزئين الخامس والعاشر المراد بالتوراة والانجيل عند المسلمين وهما اللذان يشهد لهما القرآن الكريم وبيّنا أنه لا تهض للمسيحيين حجة على اثبات دينهم وكتابيهم ونبوة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام الا من القرآن ولا يكون القرآن حجة الا اذا كان من عند الله تعالى فعليهم ان يؤمنوا